الفصل التاسع

الطب فى القرن الثالث

سبق لنا تناول الأعمال الطبية ضمن الفصل المتعلق بالتشريح لأن علماء التشريح كانوا أطباء أى إنهم كانوا مدربين طبيًّا وعلى وعى بالمسائل الطبية حتى ولو لم يزاولوا هذا الفن ؛ وعلاوة على ذلك فإن التقاليد التشريحية والطبية تتشابك إلى حد أن المرء لا يستطيع الفصل بينهما تمامًا .

ولقد كانت الأعمال المذهلة التى حققها علماء التشريح الإسكندريين والتى وصفت فى الفصل السابق ، ذروة تاريخ يمكن تلخيصه عن طريق تعداد الأسماء الآتية : ديوكليس من كاريستوس وبراكساجوراس الكوسى وهيروفيلوس من خلقيدون وإرازيستراتوس الكيوسى ويوديموس من الإسكندرية .

ولقد تتابع هؤلاء الرجال الخمسة ، الواحد إثر الآخر فى غضون قرن واحد، لنقل إنه ٣٤٠ — ٢٤٠ . وعلى قدر ما يمكن الحكم به بناء على قصة جالينوسية كان براكساجوراس معلم طب عظيمًا ، إذ عند ما سئل جالينوس عن الفريق الذى يتبعه أجاب « لغير أحد » ، ثم أضاف أنه يعتبر الذين يقبلون تعاليم أبقراط (هيبوكراتيس) أو براكساجوراس أو أى شخص آخر[1] على أنها حاسمة ما هم إلا عبيد ، وتسوية جالينوس بأبقراط كان ولا شك شرفًا عظيمًا .

براكساجوراس وهيروفيلوس وإرازيستراتوس كانوا فى المحل الأول علماء تشريح ، ولكنهم كانوا أيضًا أطباء . ولنتدبر النبض ، فعلى الرغم من أن الأطباء المصريين كانوا قد أدخلوه فى الحساب وحاولوا قياسه[11] فإن الكتابات الأبقراطية لم تلتفت إليه إلا قليلا ، وعلى قدر ما نعرف كان براكساجوراس أول طبيب يونانى يفحص النبض ويفيد منه فى التشخيص .

ولقد أدخل هيروفيلوس تحسيناً على هذه النظرية مستعملا ساعة مائية ولقياس سرعة النبض لمعرفة الحمى عن هذا الطريق ، ولقد تبين له أن قوة النبض تدل على قوة القلب ، وكانت دراسته للأمراض تقوم على المشاهدة والتجربة ، ولقد حسّن طرق التشخيص والإنذار ، وأدخل أدوية جديدة عديدة وكثيراً ما كان يلجأ إلى فصد الدم . وكان هيروفيلوس يرى أن الجنين ذو حياة فيزيقية فقط وليست هوائية ، ولقد اخترع قاطع جنين لتقطيع الحمل داخل الرحم ، وهو آلة استعملها المولدون القدامى فى الحالات الميئوس منها ، وعلى غرار من سبقوه من الأطباء اليونانيين كان هيروفيلوس يعلق كثيراً من الأهمية على التغذية والرياضة .

وكان إرازيستراتوس أول طبيب ينبذ بالكلية نظرية الرطوبات ، وكذلك كان أول من فرق بوضوح بين التدبير الصحى وبين المداواة ، وكان يعلق أهمية أعظم على التدبير الصحى . . . ولهذا كان إلحاحه فى مراعاة التغذية والرياضة الصحيحة والاستحمام . وكان إرازيستراتوس يعارض العلاجات العنيفة والإفراط فى استعمال العقاقير والإسراف فى فصد الدم (كان فى كثير من هذا مجرد تابع لآراء أبقراط) وهو الذى اخترع القسطرة السجمية الشكل .

ومعلوماتنا عن هؤلاء الرجال ضئيلة ، ولكن يخيل للمرء أنهم وضعوا نشاطهم الطبى فى خدمة بحوثهم العلمية ، وبقدر ما كانوا علماء ممتازين يستندون إلى النظام العلمى بمعهد العلوم لا بد أنهم تحققوا من أن البحث التشريحى يؤدى إلى نتائج ملموسة على حين أن دراسة الأمراض والعلاج كانت لا تزال لطبيعتها مليئة بالغموض ، وهم ما كانوا يستطيعون التخلى كلية عن واجباتهم الطبية ، إذ أن كل علاج ما هو إلا تجربة طبية ولكن اهتمامهم الرئيسى كان موجهاً إلى غير ذلك .

أبللودوروس الإسكندرى ونيكاندروس القولوفونى

تتمثل الكتابات الطبية فى العصر البطلميوسى الأول فى رسائل أبوللودوروس

الإسكندرى المفقودة ، وكانت إحداها تتناول الحيوانات السامة والأخرى تتناول العقاقير الضارة أو المميتة ، ويبدو أن تلك الرسائل كانت هى المصدر الرئيسى لكثير غيرها تناول العقاقير وخاصة السموم . ولقد كان القدماء فى رعب شديد من السموم التى قد يعرضهم لها سوء الحظ أو العداوة ، وكان للطغاة أسبابهم الخاصة ليخافوا السموم ولذا كانوا يدأبون جاهدين فى البحث عن ترياقات ، وسنقابل أمثلة من هذه المخاوف فيما بعد .

وكان أول من استعمل مؤلف أبوللودوروس هو الشاعر نيكاندروس القولوفونى (فى آسيا الصغرى) الذى أسدى من الخدمات إلى الزراع وعلماء النبات والأطباء مثل ما أسداه أراتوس إلى الفلاحين وعلماء الفلك . وتاريخ نيكاندروس صعب التحقيق . وإذا نحن وضعنا أبوللودوروس فى أوائل القرن الثالث ، فمن الجائز أن يوضع نيكاندروس فى وسطه[٢] ، وهكذا يكون معاصراً أصغر لأراتوس ونيوكريتوس . ونيكاندروس كان قسيساً لأبولون بالوراثة فى كلاروس (بالقرب من قولوفون) ، ولقد كتب قصائده فى موضوعات عديدة من حماسية وغزلية ، ولكن أغلبها كان تعليمياً فى تربية الماشية والنحل أو يحوى إنذارات عن العلاج (آخذاً عن أبقراط) وعن الثعابين وهكذا ، وقد يكون بعض كتاباته نثراً ، ولكن كل شىء وصل إلينا كان شعراً . ونيكاندروس كان ترجماناً نموذجياً كل ما عليه أن يضع ما هو معروف فى صيغة موزونة (كان عمل مثل هؤلاء الرجال شبيهاً بعمل الكتاب العلميين الذين يبسطون العلوم اليوم) ، وكانت قصائده عن الفلاحة وتربية النحل معروفة لشيشرون وتأثر بها فيرجيل . وأنا إلى الآن لم أذكر أهم قصائده وهما الإثنتان الوحيدتان الموجودتان كاملتين ، وهما عن الحيوانات السامة (الترياقات ضد الحيوانات السامة — ٩٥٨ شطرة) وعن العقاقير المضادة للسموم (٦٣٠ شطرة) ، والرسالتان مستمدتان من أبوللودوروس . والرسالة الثانية تحوى (سطور ٧٤ وما بعدها) وصفاً إكلينيكياً حسناً بالرصاص[١٢] ومعه العلاج . وبالإضافة إلى الحيوانات هناك ١٢٥ نباتاً مذكورة فى القصيدتين كما أن هناك ٢١ سماً مذكورة فى القصيدة الثانية .

ونيكاندروس كان أول من أشار إلى القيمة العلاجية للعلق الماصة[٣] .

ومن الصعب المبالغة فى تقدير قيمة مثل هذه الكتابات للجماهير حتى ولو كانت تحمل كثيراً من الأغلاط ، فهى تحوى قدراً ما من المعلومات الطبية لا للأطباء وحدهم ، ولكن أيضاً لكل شخص متعلم . ولم تترجم هذه الكتابات إلى اللاتينية فى الأزمنة الأولى ، ولذلك كان انتشاراً محصوراً فى العالم البيزنطى . وهناك تعليق عليها باليونانية منسوب إلى يؤنس تزتزيس (١٢ — ١) ومما يثبت أنها بقيت تنتقل باليونانية طبعها المبكر جداً إذ أن القصيدتين كلتاهما طبعا لأول مرة باليونانية (ش ٣٢) مع أول طبعة يونانية من ديوسكوريدس (١ — ٢) أصدرها مانوتيوس (فينيسيا ١٤٩٩ — كلبس رقم ٣٤٣ / ١) .

وتوجد طبعات قليلة متأخرة باليونانية واللاتينية ، ولكن أول مطبوع بلغة حديثة هو واحد أعده طبيب فرنسى كان شاعراً ومؤلفاً مسرحياً اسمه جاك جريفان (ولد فى كليرمونت من أعمال بوفيزيس حوالى ١٥٤٠ ومات فى تورينو فى ١٥٧٠) وسمى المطبوع « كتابان عن السموم حيث تناقش بإفاضة بعض الحيوانات السامة والترياقات والسموم ومضادات السموم . . . مترجم إلى شعر فرنسى » (جزءان . طبع فى أنفرس : بلانتان ١٥٦٧ — ٦٨)[٤] وكان هذا العنوان جذاباً لعقول الناس فى عهد النهضة .

فيلينوس القوصى

كان فيلينوس تلميذاً لهيروفيلوس ولذلك يجوز لنا أن نفترض أنه برز فى النصف الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد ، ولم يصل إلينا من كتاباته سوى نتف وردت فى كتابات بلينى وجالينوس[٥] ، ويقال عنه إنه كتب نقداً للمعجم الأبقراطى الذى كتبه باكخيوس التناجرى ، وإنه كتب مذكرات عن النباتات أو عن عقاقير بسيطة . ولقد فصل فيلينوس نفسه عن أستاذه هيروفيلوس — إذ رفض التشخيص على أساس النبض مثلا — وأسس ما دعى مدرسة الطب التجريبى التى سنتكلم عنها فى فصل آخر بمناسبة الكلام على سيرابيون الإسكندرى (٢ — ١ق . م) .

أندرياس تلميذ هيروفيلوس

سمى أندرياس هذا أندريا الكاريستى[٦] ولكن هذا ربما نشأ عن خلط مع رجل آخر. ونحن لسنا على ثقة من أين جاء هو، ولكنه برز فى مصر فى النصف الثانى من القرن الثالث ، وكان من تلاميذ هيروفيلوس وطبيباً لبطلميوس الرابع فيلوباتر (حكم ٢٢٢– ٢٠٥) ولقد قتل أندريا سنة ٢١٧ قبل موقعة رفح[٧] (حيث هزم فيلوباتر أنطيوكس العظيم ملك سوريا هزيمة كاملة غير منتظرة) .

وينسب إلى أندريا مؤلفات كثيرة ولكن لا يوجد منها لدينا شىء ، وتناولت هذه المؤلفات عض الثعبان والخزعبلات أو الأخطاء والتيجان[٨] ، وكان أكثر

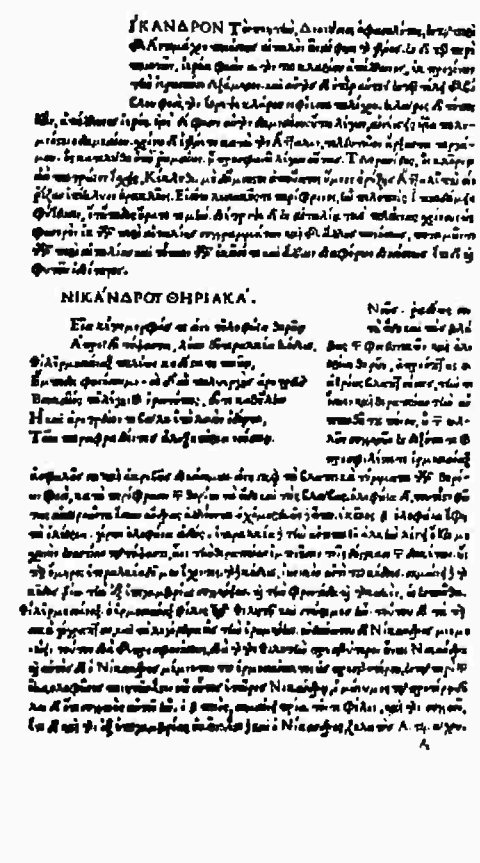
ΤΕΝΟΣ ΝΙΚΑΝΔΡΟΥ.

ΝΙΚΑΝΔΡΟΥ ΘΗΡΙΑΚΑ'.

شكل ٣٢ – أصول نيكاندروس الكولوفونى (٣ – ١ ق . م) الصفحة الأولى من الترياقات يوجد فى أعلى نبذة عن حياة نيكاندروس والسطور السبعة الأولى من الترياقات تقع فى الوسط إلى اليسار ومن حولها تعليق . وهذا جزء من كتاب كبير (٣٠,٥ سم ١٨٤ ورقة) طبعة ألدوس مانوتيوس (فينسيا ، يوليو ١٤٩٩). والجزء الأول وهو معظم هذا المجلد هو أصول ديوسكوريديس (١ –٢) ويلى هذا أعمال نيكاندروس وهى الترياقات والعقاقير المضادة للسموم ثم تعليقات على كتاب العقاقير (الورقات ١٧٥–١٨٤) وربما تكون التعليقات طبعت منفصلة فهى غير موجودة فى النسخة المتاحة . (بإذن من المكتبة الطبية فى بوسطن) .

هذه المؤلفات أهمية كتاب من دساتير الأدوية عنوانه نارثكس وصف فيه أندريا بعض أنواع النبات والجذور . والعنوان ذو مغزى ، إذ أن نارثكس اسم نبات (يشبه الجزر) كان يحظى لدى القدماء بتقدير كبير لأنه ينتج عقاراً ذا قيمة يدعى الحنتيت (ضد التقلصات) [٩] وهو نبات ذو ساق بها نخاع حمل بروميثيوس[١٠] فيها شرارة النار من السماء إلى الأرض . وكانت سيقان نبات النارثكس تستعمل عصيًّا وجبائر ومؤثرات .

ومعلوماتنا عن حياة أندريا مستمدة من سيرابيون الإسكندرى (٢—١ ق.م) وهراقليدس التارنتى (١ — ١ ق . م .) ، ومن جالينوس ، فمثلا نقل سرابيون وصف لبخة مذكورة فى كتاب نارثكس .

أرخاجاثوس من روما

ولننتقل الآن إلى روما ، فقد كانت أهميتها السياسية قد أصبحت ذات شأن ومسرعة فى النمو ، ولكنها فيما يتعلق بالعلوم والآداب كانت ما تزال ريفية ، ولم يكن غريبًا أن تدخلها[١١] العلوم عن طريق الطب لأن المرضى من الناس تبلغ بهم شدة الحاجة إلى أطباء بحيث إنهم إذا لم يجدوا الأكفاء منهم وقعوا فريسة للأدعياء . ولقد كان أوائل الأطباء الرومان يونانيًّا من النوعين الطيب والسيئ ، فكان كثير من العبيد اليونانيين على شىء من المعرفة الطبية وكان سادتهم وأصدقاء سادتهم يستعينون بهم . وأول طبيب يونانى وصل اسمه إلينا كان أرخاجاثوس المورلى الذى فتح عيادته فى روما سنة ٢١٩ ق . م .[١٢] وكان هو الأول بين كثيرين برزوا فى العاصمة وفى جميع المدن الرئيسية حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية ، وكانت عيادته واقعة بالقرب من ميدان مارسيلى العام . وليس من الواضح إذا كان أرخاجاثوس قد عومل وموّل على الطريقة اليونانية[١٣] بصفته طبيبًا عموميًّا ، وإنما هو على كل حال كان ناجحًا نجاحًا معتدلا ، إذ أن اسمه عاش من بعده . وكان معدوداً أحد المواطنين الرومان ، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة لأنه كان يؤمن بالمداواة أكثر من إيمانه بحماية

الآلهة المحليين ، ولقد تكررت هذه التهمة مراراً وفى كل مكان ، ومن الواضح أن العقل الذى يؤمن بالخرافات كان يعتبر أى مداواة علامة على عدم الإخلاص للدين ، وكلما كانت المداواة أكثر اعتماداً على العلم كانت أكثر زندقة ، وليس لدينا أية فكرة عن مقدار ما كان فى عمل أرخاجاثوس من العلم ، ولا نستطيع أن نقدر كفايته الطبية ، ولكنه كان طبيباً محترفاً لا ساحراً .

والطبيب اليونانى التالى فى روما الذى جاءنا اسمه عبر القرون هو أسكلبياديس البيثانى (١ — ١ ق . م .) ، وإنما يجوز لنا أن نكون على ثقة من أنه إبان القرن والنصف الذى انقضى بين الاثنين زاول الطب فى روما يونانيون آخرون كثيرون . وكان هذان الاثنان هما المحترفين الوحيدين اللذين استطاعا الحصول على ما يعادل دبلوماً أو شهادة بالكفاية العلمية مما كان يمنح فى المدارس الطبية فى كوس وأثينا والإسكندرية ورودس وفى أماكن أخرى .

ولم يكن فى العالم اللاتينى حتى ذلك الوقت مدارس طبية وإن كنا مع ذلك ننتظر حتماً أن يوجد بعض الأطباء المقيمين يدربون مساعديهم . ولقد كان رد الفعل ضد الأطباء اليونانيين شديداً ، ولم يكن محصوراً فى الجهال من الناس ، وإنما اشترك مع هؤلاء الرجال المتعلمون الذين كانوا متزمتين يرون من واجبهم أن يدافعوا عن الفضائل الرومانية ضد الدخلاء المتحذلقين .

ونحن سنناقش هذه الأمور بإفاضة أكثر فى الفصل الثانى والعشرين بمناسبة الكلام على سيرابيون (٢ — ١ ق. م.) وعلى كاتو الرقيب (٣ — ١ ق . م .) وعلى أسكلبياديس (١ — ١ ق . م .) وذلك الفصل لا يتعلق بهؤلاء الرجال فقط وإنما هو يتعلق بانتقال الطب اليونانى إلى الرومان وإلينا .

تعليقات

(١) Galen (Kühn) 19 : 13.

(١ا) James Henry Breasted, The Edwin Smith Surgical Papyrus Chicago, 1930), pp. 105 - 109 (Isis 15, 355 - 367 (1931). Hermann Grapow : (Berlin : Akademie Verlag, 1954), pp. 25, 28, 52, 69, 71.

(٢) ربما كان التاريخ الذى اختّرته أى حوالى ٢٧٥ ق. م. (« المقدمة جـ ١ ص ١٥٨) مبكراً أكثر من الواقع . ولقد كان نيكاندروس معدوداً بين الشعراء السبعة على عهد بطلميوس الثانى . ويقال إنه برز هو وإراتوس فى بلاط أنتيجونوس جوناتاس ملك مقدونية (٢٨٣ – ٢٣٩) . وكان ذلك هو التاريخ الذى قبله نظريا : وقد يؤخره غيرى لمدة قرن أى إلى عهد آخر ملوك برجامة أتالوس الثالث فيلوماتر الذى حكم من (١٣٨ – ١٣٣ ق. م.) وانظر Pauly - Wissowa, Vol. 33, (1936), 250 - 265. See also : Oxford Classical Dictionary, s.v. "Nicander".

(١٢) Plumbism or Saturnism, poisoning by white lead (psimythion), Nicander of Colophon, Poems and poetical fargments, ed., and trans. A.S.F. Gow and A.F. Scholfield (Cambridge University Press, 1953).

(٣) لم يستعمل أبقراط العلق الماصة ، ولسنا نعرف ما إذا كان نيكاندروس نجح فى تعميم استعمالها . ولقد استعملها ثميزون من اللاذقية فى النصف الأول من القرن الأول ق. م. وفى العصور الوسطى كانت كلمة علقة ماصة تعنى الحيوان والطبيب كليهما . ولذلك يجوز لنا أن نفترض أن استعمال العلق الماصة كان قد أصبح شائعاً وقد كان شائعاً جداً فى القرن التاسع عشر « المقدمة » جـ ٢ ص ٧٧ .

(٤) Plantin published also a Latin edition by the same Grévin(Antwerp,1571), while Grévin's two discourses concerning the virtues of antimony were published in Paris in 1566.

(٥) Given by Karl Deichgräber, Die griechische Empirikerschule. Sammlung der Fragmente und Darstellung der Lehre (Berlin, 1930), pp. 163 - 164.

(٦) كاريستوس فى أيوبويا ، هى أكبر جزائر بحر إيجة بالقرب من ساحل أتيكا . ولمزيد من المعلومات عن أندرياس هذا ، انظر :
Deichgräber (Passim) and M. Wellnann, Panly-Wissowa, Vol. 2, 2136.

(٧) تقع رفح Rhapia قرب الساحل على الحدود المصرية الفلسطينية وعلى بعد ١٥ ميلا جنوبى غزة على حافة الصحراء .

(٨) لست أفهم المعنى الحقيقى لهذا العنوان ، فالكلمة اليونانية تعنى شيئاً دائرياً أو تاجا أو تاج النصر (palma)ولكلمة stephane معان مماثلة،فهى تعنى لذلك حافة خوذة أو خوذة أو إكليل المرأة أو حافة أو إطار أى شىء .

(٩) ترد من الشرق الأوسط (أفغانستان) ووصفها ديسقوريديس (١–٢) فى كتابه الثالث ٩١. ولقد وصف نباتات أخرى فى الكتاب ذاته : ٥٥ ، ٨٧ ، ٩٤ – ٩٨ .

(١٠) بروميثيوس (الفكرة السابقة) هو أخو إپيميثيوس (الفكرة اللاحقة) ، وينسب إليه كشف كثير من الفنون ، فقد صنع الإنسان من طين ونفخ فيه الروح بوساطة نار مصطنعة سرقها من أو ليمبوس .

(١١) The urbs, to asty.

(١٢) كان ذلك بعد الحرب البونية الأولى (٢٦٥ – ٢٤٢) وقبل الثانية (٢١٨ – ٢٠١).

(١٣) يقول نقش فى جزيرة كوس « الأطباء الذين يعملون فى الخدمة العامة بالمدينة » انظر :

Wilhelm Dittenberger, Sylloge inscriptionum graecarum (ed.3, Leipzig, 1920), vol. 3, p. 25, inscription 943, 1.7.